محاضرة 7: الطاهر وطار

1. النشأة والتكوين:

يُعدّ الطاهر وطار (15 أوت 1936 – 12 أوت 2010) أحد أبرز أعلام الرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية، ومن الرواد الذين جسّدوا الالتزام الوطني والفكري في الأدب الحديث. ولد في مدينة سدراتة التابعة لولاية سوق أهراس، في بيئة ريفية محافظة أسهمت في تشكيل وعيه المبكر بالهوية والثقافة. تلقّى تعليمه الأول في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، حيث كان من تلاميذها البارزين، ثم التحق بمدرسة ابن باديس بالعاصمة وانتقل إلى تونس ودرس في جامع الزيتونة سنة 1954م، حيث تعمّق في العلوم اللغوية والشرعية. منذ نعومة أظافره، أظهر شغفًا عميقًا بالأدب، فكان قارئًا نهمًا لرواد الأدب العربي الحديث أمثال جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وطه حسين، ومصطفى صادق الرافعي، وامتدّ هذا الشغف إلى القصة والمسرح، ولا سيما الأدب الملحمي، وهو ما ترك بصمات واضحة على تجربته الإبداعية فيما بعد. بدأ مسيرته المهنية في خمسينيات القرن العشرين في حقل الصحافة، حيث نشر أول قصة له سنة 1955 ونشرها في مجلة الصباح، وكتب في الصحف التونسية فعرفه القراء، ورجع إلى الجزائر بعد أن استقلت من الاستعمار الفرنسي. كان مناضلاً سياسياً، والتحق بالعمل السياسي في جبهة التحرير الوطني، ولم يترك العمل الصحفي بل أسس جريدة "الأحرار" وهي أول جريدة وطنية، وامتد نشاطه إلى الصحافة المرئية والمسموعة فعين مديرا للإذاعة والتلفزة الجزائرية. وفي سنة 1989 أسس مع المرحوم يوسف سبتي، الذي قتل ذبحاً، جمعية الجاحظية الثقافية التي

شكّلت فضاءً حيويًا للمبدعين والمثقفين الجزائريين، وساهمت في دعم جيل جديد من الأدباء.

يعد الطاهر وطار أحد المؤسسين للرواية الجزائرية المكتوبة بالعربية إلى جانب الرائد عبد الحميد بن هدوقة، وقد انعكست ثقافته الإسلامية والتراثية الأصيلة على نصوصه، مثلما تأثرت هذه الأعمال بتوجهاته الإيديولوجية باعتباره أحد المثقفين الماركسيين التقدميين، غير أن رواياته لم تبق لتستفيد من السريالية والعجائبية، وهذا ما جعلها نصوصا متجددة ومتحررة. يرى الطاهر وطار في الكتابة انتحاراً، فهي تعلم نزيلها كيف يدفع دون أن يقبض وكيف يعيش خائفاً وكيف يجوع ويجوع أطفاله وكيف يسكن العزلة.[1]

2. البدايات الأدبية وتشكّل التجربة:

بدأ الطاهر وطار مسيرته الأدبية بالكتابة الصحفية، قبل أن يتجه إلى القصة القصيرة و«لعله فتح جديد في دنيا القصة القصيرة في الجزائر. وأعني بهذا الكتاب: الطعنات للطاهر وطار الكاتب القصصي المعروف لدى قراء العربية، من خلال ما ينشر من حين لآخر في صحافتنا الوطنية، وكذا مجموعته الأولى المشهورة التي طبعت في تنوس تحت عنوان: دخان من قلبي ولقيت يومئذ رواجا منقطع النظير، بالنسبة لباكورة أي كاتب. وكما صدرت له أخيرا عن شركة "لاسيند" مسرحية ذهنية في أربعة فصول، تحمل عنوان الهارب وهي تجربته المسرحية الأولى.. »[2]

---

[1]– أنظر: حمدي السكوت، قاموس الأدب العربي الحديث، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015م. ص 408. (بالتصرف)

[2]– بلقاسم بن عبد الله، الأدب الجزائري وملحمة الثورة، الجزائر: منشورات الحضارة، 2013م، ص151.

والرواية، حيث وجد فيهما وسيلة للتعبير عن هموم المجتمع الجزائري. وقد برز اسمه بقوة مع روايته **"اللاز "**التي تُعدّ من أهم الروايات الجزائرية، لما حملته من طرح عميق لمرحلة الثورة وما صاحبها من صراعات.

تلتها أعمال أخرى مثل: "الزلزال"، "عرس بغل"، "الحوات والقصر"، و"تجربة في العشق"، وكلها تعكس انشغاله بالقضايا الاجتماعية والسياسية والفكرية.

وجاءت كتابات الطاهر وطار في سياق مرحلة حساسة من تاريخ الجزائر، حيث عايش فترة الاستعمار، ثم الثورة، ثم مرحلة بناء الدولة الوطنية. وقد انعكس هذا المسار التاريخي في نصوصه، التي تناولت:

- صراع القيم بين الماضي والحاضر .
- خيبة الأمل بعد الاستقلال .
- التحولات الاجتماعية والسياسية .
- أزمة الهوية والانتماء .

كما تأثر بالفكر الاشتراكي، وهو ما يظهر في دفاعه عن الطبقات المهمشة، وانتقاده للسلطة والانحرافات الاجتماعية.

3. الموضوعات الأساسية في أعماله:

تتميّز كتابات وطار بتنوع موضوعاتها، وقد كان وطار يطرح هذه القضايا بجرأة، بعيدًا عن المجاملة، ساعيًا إلى كشف الواقع كما هو. و«تناول مواضيع حية تمس القارئ من قريب أو

بعيد، وكلها تصف لنا حياة الجماهير الكادحة أثناء الثورة التحريرية، أو تعرض علينا مشاكل اجتماعية، يعاني من شدة وقعها المجتمع الجزائري».[1]

ومن أبرز المواضيع التي تطرق إليها وطار:

- **الثورة الجزائرية** وما رافقها من بطولات وتناقضات .

- **العدالة الاجتماعية** والدفاع عن الفقراء ويتجسد هذا في قصته "بقرة اليتامى" التي تروي معاناة طبقة العمال الذين تسلب حقوقهم وجهودهم من طرف مدير المزرعة بالمقابل يعيش هو في ثراء ورغد من العيش. «إننا نحتاج إلى أجرة عملنا. التي لم نقبضها منذ ثلاثة أشهر، والتي بلغنا أنها جاءتنا، لكن المدير فضل أن يسدد بها الديون المترتبة على المزرعة، والتي لا علم لنا بها».[2] وفي هذا المشهد السردي يوضح رقي هؤلاء العمال في المطلبة بحقوقهم وفرض العدالة الاجتماعية بطرق راقية تعكس الوعي والنضج الذي تتميز به فئة العمال «من الأحسن، أن نصفي معك حساباتنا، قبل الافتراق، لن نضربك لن نقتلك، لن نهين زوجتك، أو ابنتك، أو كلبك، ولن نحطم سيارتك، لكننا فقط، لا نريد أن نتركك تهرب، قبل تصفية الحساب، نريد جلب خبير من المدينة، ومحاسبتك».[3]

- **الدين والتدين**، حيث يناقش العلاقة بين الدين الحقيقي والممارسات الاجتماعية، ولعل معظم رواياته يهيمن فيها الجانب الديني ومنها ما يشير بشكل مباشر بداية من العنوان كروايتي "الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي" و "الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء" وهنا يمكن تحليل هذين العنوانين بأن الكاتب يرمز إلى نفسه مباشرة

---

[1]– بلقاسم بن عبد الله، الأدب الجزائري وملحمة الثورة، ص152.

[2]– الطاهر وطار، بقرة اليتامى (الطعنات)، ط3؛ الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (1966م)، ص48.

[3]– الطاهر وطار، بقرة اليتامى. ص48

بإدراج اسمه الحقيقي "الطاهر" كولي وكأنه يقدس ذاته تقديسا دينيا ويمكن قراءة هذا الاسم أنه صفة نبيلة لشخص متدين. بالإضافة إلى رواية الشمعة والدهاليز" وكلها روايات تطرح موضوع وفي هذا المشهد السردي من رواية الشمعة والدهاليز

يُبرز الطاهر وطار في العديد من رواياته علاقةً معقدة ومتوترة بين الدين بمفهومه الحقيقي والممارسات الاجتماعية والسياسية التي تُمارس باسمه. فالجانب الديني يهيمن على نسيج سردياته، ويظهر أحيانًا بشكل مباشر من خلال العنوان نفسه، كما في روايتي «الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي» و«الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء». وفي هذين العنوانين يُدرج الكاتب اسمه الحقيقي «الطاهر» بطريقة رمزية لافتة، فيجعل منه «وليًا» يعود إلى مقامه الزكي أو يرفع يديه بالدعاء، مما يحمل دلالة تقديسية للذات، أو على الأقل يمنح الاسم صفة نبيلة دينية عميقة. أما رواية «الشمعة والدهاليز»، فتُعدّ من أبرز الأعمال التي تناقش موضوع الدين كـ« الظاهرة الإسلامية الحكم الإسلامي، جماعة الهجرة والتكفير، الحركات الإسلامية المسلحة».[1] وفي أحد أبرز مشاهدها السردية يُعبّر أحد الشخصيات عن رؤية متطرفة بقوله: «ينبغي قيام الدولة الإسلامية الإسلام هو الشمعة الوحيدة القادرة على إنارة كل الدهاليز والسردايب»[2] من خلال هذه الروايات، يسعى وطار إلى تفكيك الخطاب الديني السياسي، واستكشاف التوتر القائم بين جوهر الدين الروحي وبين استخداماته الإيديولوجية في الواقع الاجتماعي والسياسي الجزائري.

[1]– محمد الصالح خرفي، الديني والإيديولوجي في الرواية الجزائرية المعاصرة روايات الطاهر وطار أنموذجًا، جامعة بسكرة، مجلة قراءات، العدد 05، أكتوبر، 2013م، ص 152.

[2]– الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، الجزائر: موفم للنشر والتوزيع، 2007، ص11.

- **الصراع الطبقي**: يُعد الصراع الطبقي ركيزة أساسية في أدب الطاهر وطار، حيث ظل وفيا للمنظور الإيديولوجي الماركسي الذي يرى تاريخ الشعوب كصراع دائم بين الطبقات، وقد طبق وطار هذه الرؤية في قراءته لتاريخ الجزائر المعاصر عبر رواياته، محولاً المجتمع التخييلي إلى مرآة تعكس التحولات الاجتماعية والواقعية وتظهر أمثلة هذا التوجه بوضوح في رواية "اللاز" التي رصدت هموم المجتمع، «يا حمو، من تغير منا؟ لا أنا ولا أنت. الظروف تغيرت. أنا فقير، فقير جدًا، أقل من الفقير... وأنت متوسط الحال، بل غني»[1].

- وروايتي "تجربة في العشق" و "الحوات والقصر" اللتين حافظ فيهما وطار على نهجه الواقعي وقراءته الطبقية على الرغم من التجريب الفني، كما قدم في أعماله المتأخرة، مثل: "الشمعة والدهاليز" وسلسلة "الولي الطاهر"، مادة خصبة للتحليل السوسيولوجي الذي يشرح الإفرازات الاجتماعية والصراعات العميقة داخل بنية المجتمع الجزائري.

- ويُعد الطاهر وطار من أكثر الكتّاب الذين نقلوا صورة المجتمع الجزائري بصدق، حيث:

- صوّر حياة الريف والمدينة .

- كشف عن معاناة الفئات المهمشة .

- انتقد الظواهر السلبية مثل الفساد والنفاق .

- أبرز التناقض بين القيم التقليدية والحديثة .

---

[1]– الطاهر وطار، اللاز، ط2؛ الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م.

4. الخصائص الفنية والأسلوب:

يُعدّ الطاهر وطار أحد أبرز الرواد الذين ساهموا في ترسيخ الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية في مرحلة كانت فيها الكتابة بالفرنسية لا تزال سائدة، حيث فتح آفاقا جديدة أمام جيل لاحق من الكتّاب وترك بصمة مؤثرة في المشهد الثقافي الجزائري. وتتميز تجربته بقوتها الالتزامية الجريئة، وواقعيتها الاجتماعية الحادة، وعمقها الفكري الذي يطرح قضايا الهوية والطبقات والدين والسلطة بجرأة، غير أن بعض النقاد ينتقدون غلبة الطابع الإيديولوجي في عدد من أعماله، مما أدى أحيانًا إلى المباشرة على حساب الجمالية الفنية والإبداع السردي. ويميل الطاهر وطار إلى بناء شخصيات تمثل نماذج اجتماعية، تعكس تناقضات المجتمع الجزائري. بأسلوب يتميز بـ « بالسلاسة والعذوبة، ودقة الوصف وانتقاء الكلمات الموحية الاخاذة، زيادة عن تناول الكلمة تناولا فنيا مبدعا، مما يجعل القارئ يشعر بجاذبية قوية تجذبه لأن يلتهم كل ما يقع بين يديه من إنتاجه القصصي -إذ الكلمة عنده لها سحر شاعري خاص وإن من البيان لسحرا».[1]

يجمع الطاهر وطار في كتاباته القصصية بين أحداث القصة والأساطير الشعبية ويتجسد ذلك في كل من قصة "الدروب" التي دمج فيها الأسطورة الشعبية "بجباح المرتاح" التي تدور أحداثها في فترة الثورة التحريرية في منطقة الأوراس، وقصة "اليتامى" التي دمج فيها أسطورة "بقرة اليتامى" التي تعد من أمتع القصص التي ترويها الجدات الجزائريات لأحفادهن. ويتجلى التراث الشعبي في معظم أعماله الأدبية خاصة رواية "الحوات والقصر" التي تتضمن نصوصا متنوعة من الأمثال والحكم والحكايات الشعبية المعروفة كألف ليلة وليلة والأساطير والتراث الديني. واستعار في هذه الرواية قصص الصيادين التي تماثل حكاية الصياد مع العفريت وحكاية الصياد جوذر وغيرها في حكايات ألف ليلة وليلة.

---

[1]– بلقاسم بن عبد الله، الأدب الجزائري وملحمة الثورة، ص152.

قال حوات، يقف على صخرة منبسطة مخاطبا بقية الحواتين المنبثين على الوادي، في صف طويل».[1]

ويبدأ الروائي الجزائري "الطاهر وطار" روايته بمشهد مجموعة من الحواتين على حافة الوادي، غارقين في عملهم، فيما يشغلهم خبر اغتيال السلطان في الليلة الظلماء داخل غابة الوعول. ويبدو أن الكاتب قد استلهم هذا المشهد من حكاية «الصياد والعفريت» في «ألف ليلة وليلة»، مع إعادة صياغة العناصر السردية بطريقة إبداعية: فحوّل الصياد إلى «حوات»، والشبكة إلى «صنارة»، والبحر إلى «وادٍ»".[2]

يستخدم الطاهر وطار الأسلوب الخطابي في بعض المشاهدة السردية فيلحق كلماته بـ "أيها" ليخاطب الشخصيات أو يخاطب وجدانهم مثلا: "أيها الضابط، أيها الفدائي.. أو استخدام أساليب إنشائية مثل: النداء، الاستفهام، الأمر، النهي، والتعجب أو إظهار نبرة الحماس التي توحي للقارئ بأن الكاتب يريد منه أن يتبنى فكرته بشكل غير مباشر فيشعر المتلقي أنه أو أنه يشد انتباهه شخصيا عبر مناداته بضمير المخاطب مثل: أنتم، يا أيها الناس، لخلق تفاعل مباشر بينه وبين المتلقي والتأثير فيه، وعادة ما يكون هذا الأسلوب مملا إذا تم استخدامه في النصوص السردية التي من خصائصها إحداث المتعة والتشويق وليس التوجيه أو الإرشاد. « غير أن هذا الأسلوب الخطابي، يشفع له به أسلوب المونولوج الداخلي الذي يمسح شيئا من غبار الكلاسيكية الذي كاد أن يطمس حيوية القصة ذات المضمون الشيق».[3] في كلٍّ من "قصة البخار" وقصة "النجار"، و"قصة الرسالة" وهي نماذج ينزع الأبطال فيها إلى الاحتماء بعوالمهم الداخلية، مستغرقين في مونولوجاتهم الذاتية هروبًا من

---

[1]– الطاهر وطار، الحوات والقصر، ط2؛ الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م، ص9.

[2]– أنظر: إدريس بودبية، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، ط1؛ منشورات جامعة منتوري قسنطينة، 2000م، ص243.

[3]– بلقاسم بن عبد الله، الأدب الجزائري وملحمة الثورة، ص159.

واقع مأزوم يثقل كاهلهم بالهموم. وتكاد تقنية المونولوج تشكّل خيطًا ناظمًا في معظم قصص وطار، إذ يوظّفها الكاتب للكشف عن خبايا النفس وتصوير الانفعالات العميقة التي تعتري شخصياته، بما يتيح للقارئ التوغّل في خصوصياتهم، وفهم ميولهم، وانشغالاتهم اليومية، وما يثقلهم من معاناة وما يحدوهم من تطلعات، ويستخدم الطاهر وطار الرمز للتعبير عن أشياء وأفكار بطريقة غير مباشرة.

يعتمد وطار في رواياته على بناء سردي متماسك، يقوم على:

- تسلسل الأحداث مع إدخال بعض التقنيات الحديثة.
- تعدد الأصوات السردية.
- استخدام الراوي العليم أحيانًا.
- المزج بين السرد والوصف والحوار.

وتتسم نصوصه بالقدرة على شد القارئ من خلال طرح قضايا واقعية تمس حياته اليومية.

يتسم أسلوب الطاهر وطار بعدة خصائص تميّزه عن غيره من الروائيين، منها:

- اللغة الواقعية المباشرة، مع توظيف بعض التعابير الشعبية.
- الاعتماد على الحوار كوسيلة أساسية في بناء النص.
- توظيف الرمز، خاصة في روايات مثل "الزلزال".
- الجمع بين البعد الواقعي والبعد الفكري.
- حضور السخرية أحيانًا في معالجة القضايا.

وتحمل كتابات وطار بعدًا فكريًا واضحًا، إذ لم يكن مجرد راوٍ للأحداث، بل كان مفكرًا ناقدًا:

- يدافع عن العدالة والحرية.
- يطرح أسئلة حول الهوية والدين والسياسة.
- يسعى إلى إحداث وعي اجتماعي لدى القارئ.

يمثّل الطاهر وطار نموذجًا للأديب الملتزم بقضايا مجتمعه، الذي سخّر قلمه للدفاع عن القيم الإنسانية والوطنية. وقد استطاع من خلال أعماله أن يعكس تحوّلات المجتمع الجزائري، وأن يطرح أسئلة عميقة حول الواقع والهوية.

5. إنتاجه الأدبي:

أنتج وطار أعمالًا مسرحية لافتة وتميزت تجربته الروائية بالغزارة والتنوع والتجريب الجريء، وجمعت هذه الأعمال بين الأصالة الثقافية والابتكار الفني، وقدّمت قضايا اجتماعية وسياسية بجرأة لغوية وجمالية متميزة.

- مسرحية: على الضفة الأخرى تونس 1958.
- مسرحية: الهارب تونس 1960.
- قصة: دخان في قلبي" تونس 1962،
- رواية: اللاز (الجزائر 1974)
- رواية: الزلزال (بيروت 1974)
- رواية: الحوات والقصر الجزائر جريدة الشعب في 1974
- رواية: عرس بغل (بيروت 1978)

- رواية: العشق والموت في الزمن الحراشي (بيروت 1980)
- قصة: "رمانة" الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981).
- مجموعة قصصية: "الشهداء يعودون هذا الأسبوع" (الجزائر 1984).
- رواية: تجربة في العشق (الجزائر 1989).
- رواية: الشمعة والدهاليز (الجزائر 1995).
- رواية: الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي (الجزائر 1999).
- رواية: الولي الطاهر يرفع يديه بالدعاء (الجزائر جريدة الخبر حوالي سنة 2005م).

حظي وطار بتكريمات عديدة، من أبرزها جائزة الشارقة لخدمة الثقافة العربية (2005)، وجائزة الرواية من مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية (2009).

يبقى الطاهر وطار أحد الأعمدة الأساسية في الرواية الجزائرية، حيث جمع بين الإبداع الأدبي والالتزام الفكري، وترك إرثًا غنيًا يواصل تأثيره في الأجيال اللاحقة.

عُرف الطاهر وطار بنضاله الدؤوب في الدفاع عن اللغة العربية، وسعيه الدائم إلى تجاوز الحدود الضيقة للهوية المحلية نحو أفق إنساني أرحب، رافعًا شعار "لا إكراه في الرأي". وعلى الرغم مما عاناه من المرض في سنواته الأخيرة، فإنه ظلّ مخلصًا للكتابة حتى الرمق الأخير، إذ أنجز روايته الأخيرة "قصيد في التذلل" سنة 2010، قبل أن يغادر الحياة في 12 أوت من العام نفسه بالعاصمة الجزائر، مخلفًا إرثًا أدبيًا غنيًا يُعدّ من أهم المنجزات في تاريخ الرواية الجزائرية المعاصرة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. إدريس بودية، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، ط1، منشورات جامعة منتوري قسنطينة، 2000م.
2. بلقاسم بن عبد الله، الأدب الجزائري وملحمة الثورة، الجزائر: منشورات الحضارة، 2013م.
3. حمدي السكوت، قاموس الأدب العربي الحديث، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2015م.
4. الطاهر وطار، الحوات والقصر، ط2، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984م.
5. الطاهر وطار، الشمعة والدهاليز، الجزائر: موفم للنشر والتوزيع، 2007.
6. الطاهر وطار، اللاز، ط2، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981م.
7. الطاهر وطار، بقرة اليتامى (الطعنات)، ط3، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (1966م).
8. محمد الصالح خرفي، الديني والإيديولوجي في الرواية الجزائرية المعاصرة روايات الطاهر وطار أنموذجًا، جامعة بسكرة، مجلة قراءات، العدد 05، أكتوبر، 2013م.